حكاية الشعر الرمزى

للأستاذ حبيب الزحلاوى

نشر الأستاذ عادل الغضبان فى المجلة التى يتولى رئاسة تحريرها ، مقطوعة رمزية من قلم الدكتور بشر فارس .

ليس إيراد الرمز على هذا النوع بالأمر الغريب ، وإنما الغرابة فى أن الأستاذ عادل لا يؤمن بالشعر الرمزى ، وله فيه رأى لا يرضى الرمزيين ولا مطاياهم . وهو برغم هذا يفتح صدر مجلته لمقطوعة الدكتور بشر فارس ، ويعلق عليها ، ويدع الدكتور يعلق على تعليقه ، ثم ينشر مقالا فى ذات العدد بقلم الأستاذ ابراهيم الابيارى يدافع به عن المذهب الرمزى .

هنا وجه الغرابة ، بل هنا مجال الشك والتساؤل .

كان من المنتظر — لولا هذا الوضع المستغرب — أن تسلك المقطوعة الرمزية الجديدة السبيل الذى سلكته أخواتها من قبل ، لتصل إلى ذات القبر الذى دفن فيه ، أما الأثر المفروض حدوثه وهى طريقها بين المهد واللحد ، فهو معروف عند جميع الأدباء ، فكاهة تفسح مجالا للتندر والسخرية ، إشفاق على جهود تهدر فى الالتواء والمرض ، وعياذ من انتقال وباء الرمزية إلى أدبنا ، أو هروب الشاعر إلى بلاد الله الواسعة ، يلمن أدباء مصر فى الشام ، ويسفه أدب الشام فى العراق ، ويوقع فى لبنان بين المسيحيين والمسلمين ، ويزدرى الشرقيين فى بلاد الغربيين .

كان هذا المرتقب وقوعه بالقياس على الوقائع الماضية ، ولكن لياقة الأستاذ عادل الغضبان تحت هذه الظنون ، ونأت بهذه الاستنتاجات بعيداً . بموقفه من الدكتور بشر فارس إذ يقول له : سواء كانت هذه المقطوعة من عالم الشعر أم من عالم النثر فليس هذا موضوع الخلاف ، وإنما هو فيما تضمنته من رموز خشينا معها أن تند عن عمود الشعر العربى » ويستطرد وهو الرزين المتمكن : « إن الشعر ، معنى وشعور وموسيقى ، يتعاون اللفظ والأسلوب والوزن والقافية على إخراج ذلك المثلث ، فمن شاء من الشعراء فصل لها من النصوع والوضوح ، ومن شاء ألقى على هيكلها وشاحاً رقيقا من الابهام ، ومن شاء رمز وكنى » وبعد أن ضرب الأمثال وأنهض الأدلة قال : « إن هذه المقطوعة لا تنحدر إلى القلب إلا بعد تمنع ، ومتى انحدرت إليه ملأته بالعبرة والاعجاب (!!!) ولعلها لا تثير فيه هزة الطرب والانفعال » .

كلام مقبول موزون لا مرية فيه ، ولكن أنى للداعية الرمزية المنادى بنفسه إماماً لها ورسولا أن ينصت إلى معلمه ، وقد كان تلميذا له فيما غبر من الأعوام ؟ أنى للتلميذ الذى سبق معلمه بمراحل أن يقبل ما هو مقرر من قواعد الشعر وهى معروفة ثابتة من مئات السنين ؟ إن الأستاذ الدكتور بشر فارس هو بتقسم ابتسامة الشفق على معلمه المتخلف عن ركب الحياة ويقول له « إن تعريفك للشعر إنما هو التعريف المتقادم الضيق ، المحصور فى الشكل وحده ، وأن العمود الشعرى الذى أكبرتموه وقدستموه فإنى مستطيع إبعادكم عنه » ولم يكتف بما قال بل راح يدل كعادته ، على ما قال وكتب ونشر فى الصحف السيارة ويهدى إلى فهارس وأسانيد تثبت خطل تعريف الشعر العربى القديم ، ويدعى أن تعريفه الحديث « هو إبراز المضمر ، واستنباط ماوراء الحس من المحسوس ، وتدوين اللوامع والبدائه »

ضحكت من هذا التعريف العصرى ، والضحك مفتاح الغضب ، ولكنى تمهلت ريثما اطلع قراء « الرسالة » على « المقطوعة » مثار الموضوع ، لعلى أنا الذى عيبت عن فهم الرمزية ؛ وعنوانها « إلى زائرة » تلك التى وقف منها الأستاذ الزيات فى كتابه « دفاع عن البلاغة » موقفا سأعود إليه . أقول تمهلت لعلى أدرك المغلق من الرموز ، وأحل عقد الطلاسم والأحاجى . وإلى القارىء المقطوعة « البشريه » أو القصيدة « الفارسية » وعنوانها « الشاطىء الحافل » .

« أنا السيد الأعلى للشاطىء الحافل ، إليه من مواغل الأرض تقبل الضمائر ذوات الرغبات الحساس ، عاجزات ، حيارى ، فتموت .

« فى اللجة يمتد سلطانى . فراشى رجراج بالمآسى ، فيه يقترن الفكر بالنوص . ولا مناص لأحدهما عن الآخر ، هنا الحياة .

« حياة وعبث رشيق بالموت الحقير ، شاعر أزلى ذو أنامل ماهرة ، يبغى التلهى عن غصة الزخارة ، فيلعب لعب الشعوذ بأوعية ذهب ، ترقد فيها إلى غير إفاقة ، ضمائر لا عظمة عندها .

« يا للعلم اللانهاية ! سير لأقصى اللطف الشارد » فى زرقة الفضاء ، ذات الحدقات الصوافى ، تنور الشاطىء الحافل برفات

الرغبات » ماثلة فى ركن موقوف للقوافى الخوالد، قوافٍ تسل فى ساعات الاستجمام ، فى ضمائر لا عظمة فيها ولا فور »

القاهرة ٣ فبراير ١٩٤٥ بشر فارس

هل أنمت النظر أيها القارىء فى هذه الخريدة التى فجرها ذهن الشاعر المقلق الدكتور بشر فارس ؟ هلا استغنيت عن المعنى والشعور والموسيقى بعد أن قام الشاعر الرمزى المغلق « بابراز المضمر ، واستنباط ما وراء الحس من المحسوس ، وكيف يكون تدوين اللوامع والبواده » ؟ أما أنا فأعترف لك صراحة بأنى عصرت يا فوخي ؛ وكددت ذهنى ، واجتهدت فى تحميل اللفظة والكلمة والجملة والشطرة الواحدة وعلامات الاستفهام أو التعجب وكل حركة وردت فى هذه « المقطوعة » ما تحمل وما لا تحمل من المعانى بغية الاهتداء إلى « مالا يحتاج إلى شرح » كما قال أحد مطايا الرامز » ؛ ولكن أقسم أنى لم أفهم ، وهل ألام على جهلى حل الألغاز ، وأى تثريب على من لا يفقه الطلاسم والأحاجى ؟

لا يهولنك أيها القارىء أن تكون غبيا مثلى ، اعلم بأن صديقالى — يحفظه الله — هالته بلاهتى ، فراح يربت كتفى ، ويطيب خاطرى ، ويشرح لى « المقطوعة » بغير ماعناء أو تكلف كأنه يقرأ للمتنبى أو البحترى أو ابن الرومى ولكنه قطع أربع ساعات فقط فى هذا الشرح والتفسير والتخمين والاستنتاج . وإليك الشرح كما وعته ذاكرتى .

« أنا السيد الأعلى لشاطىء هذه الحياة التى تعج فيها الضمائر والرغباب الخسيسة ، العاجزة الغيرة الميتة .

« أنا السيد يعتد سلطانى على لجج النهر الحافلة بالدمى التى لا مناص من وجودها فى الحياة لأنها تقترن بفكرى .

« أنا شاعر أزلى أعبث عبثا رشيقا بالحياة وبالموت الحقير ، وأتلهى بقصص الناس ، وألعب لعب المشعوذ بهؤلاء الناس العظماء بالمال فقط ، بيد أن ضمائرهم ليست عظيمة ، وهم النيام أبداً وقد لا يفيقون .

ثم يتوجه بالخطاب إلى العلم فيقول « يا العلم ! باللانهاية أين أنت ؟ ها أنا الشاعر ، أسير الحكمة الشاردة فى الفضاء فأرى بعينى الباصرة وبصيرتى الصافية ، رفات ورمم أصحاب الرغبات الخسيسة ملقاة فى ركن عند حافة شاطىء الحياة ، وقد اتخذت منها ، أنا الشاعر الأزلى ، فى ساعات استجمامى موضوعا لبعض قصائدى الخالدة »

هل انبثق النور الرمزى من كوى هذا الشرح ؟ هل تسللت خيوط شمس المعرفة إلى ذهنى فأنارت ما فيه من الظلام ؟ قلت للشارح المجتهد وهو صديق كريم أحبه وأجله وأعتز بصداقته ، لا عليك فى الاجتهاد فى التفسير والتاويل بشرط ألا تحملنى على الاعتراف بطيب مذاق عصير العسيخ .

قال : أول واجبات الناقد تلمس نقائص النقود لا نقائصه . أليس نقيصا تشبيه اللجة بفراش رجراج ؟ أليس جميلا عبث الشاعر بالحياة بأنامل ماهرة عبثا رشيقا بالموت الحقير ؟ ألم تره يلعب لعب المشعوذ ليستل القوافى الخوالد ؟ ثم لا يقرب عنك أن القصيدة إنما هى صرخة وجع وألم ، وإذا عدت معى نستعرض حياة الدكتور بشر فارس من خلال الأعوام الماضية نجد أنها لقيت من الصدمات ما لا يحتملها سوى شاعر جبار كبشر ، ولا يصمد لمثلها إلا من قدت أعصابه من صخرة صوانة . ألم تر كيف حورب فى أدبه ، وكيف أقصى عن المقعد فى الكلية ، وكيف دفع عن المجمع اللغوى ، وكيف أبعد عن تحرير المقتطف ؟ إذا عرفت هذا وقدرت احساسه وشعوره قدرت ولا شك معنى هذه الصرخة المكبوتة والقصة المخنوقة ، ولكنت قرأت وفهمت ما قرأته أنا وفهمته ! !

أقف من صديقى وقفة المشدوه حيال هذا الاجتهاد فى التخريج ، والتعسف فى التأويل ، أو أنى تارك تعليل صديقى لفطانة القارىء لعله يقتنع بما لم أقتنع به بعد ، وإنى حبا بصديقى الكريم وتطمينا لباله أقول إنه ما من أديب واحد ممن تصدوا لأدب الدكتور بشر فارس ، أو حاربوه أو سخروا منه ، أحس أن فى هذه المقطوعة المختنقة ، ما يمسه من قريب أو من بعيد ، لأن الضمائر المستترة أو المدفونة فى صدر الشاعر إنما هى حشرات تدب فى رمة ، ولا تنس أن القصيدة نظمت سنة ١٩٤٥ .

قيل لنا إن الشعر بيان يكشف لنا أقنعة المعانى ، وأن مدار غاية الشاعر الفهم والافهام ، والافهام لا يكون إلا بالبيان »

أما الشاعر بشر فيرى أن الشعر « طيرة مرتجلة بأجنحة من نور رفاف » فأى القولين هو السليم المدرك ؛ قول الأساتذة القدامى أم قول الدكتور ؟ !

قال الأستاذ ابراهيم الابيارى يعرف الشعر الرمزى وينافح عن الشاعر الرمزى «لايهولنك أن يعنى فكرك» ويكد خيالك ، ويجهد عقلك ، فلهذا كله خلقت الرمزية » ويقول « إذا عرفت اللغز وحيرك عرفت الرمزية فى الصورة » ويقول لافض فوه « المراد بالرمز أن يعمى بك الرمز إلى آخر المطاف تاركا لعقلك أن يلتمس السبيل إلى مراده كداً جاهداً » بيد أن الناقد جول لمتر يقول « الصورة الرمزية لا تصبح برهانا على الشاعرية إلا حينما يكيفها هوى سائد أو أفكار أو صور بعثها ذلك الهوى » وحينما ينقل إليها الشاعر من روحه الخاصة حياة إنسانية وذهنية » فهل رمز بشر فارس يرمى إلى إجهادنا وكدنا وارهاقنا أم يروم بأن ينقل إلينا من روحه الخاصة حياة انسانية وذهنية فخاب فى هذه المحاولة؟

الشعر كما عرفنا تعبير عاطفى يضرمه خيال الشاعر » قال الناقد هزلت : الشعر لغة الخيال بالمعنى الدقيق ، والخيال هو تلك القوة التى تمثل الأشياء لا كما هى فى نفسها ولكن كما تكيفها أفكار ومشاعر أخرى ، إلى تنوعات من الهيئات وامتزاجات من القوى لا نهاية لها ، وليست هذه اللغة قليلة الأمانة للطبيعة لأنها باطلة من ناحية الواقع ، ولكنها تكون أقرب إلى الطبيعة وأكثر أمانة إذا نقلت التأثير الذى يتركه فى العقل الشىء الواقع تحت سيطرة الهوى » .

هل فى مقطوعة «الشاطىء الخافق» أو فى لغتها أمانة للطبيعة انتقل تأثيرها إلى عقل القارىء فحملته على الاتصال بالنفس الانسانية فجعلت القارىء يسر بها ويفرح ؟

هل الرمز فن ؛ وهل يصلح الرمز أن يكون أداة للتعبير عن الفن ؟

مالى أسأل الشاعر الرمزى عما نحاه فى طريقه ومحاه من معجم ما سموه الشعر لأن الشاعر الرمزى كما يقول الدكتور بشر «إنما يعمل فى الظلمة ، ظلمة الخالجات ، فهو يبين بقدر ما يخلص النور إلى زواياها ، ثم إنه لقاط أوهام تشغل الناس ولا يستوضحونها ، فهو يرسم خيالات ملامحها لبصائرهم لا لأبصارهم »

مالى أرى الدكتور بشر السهى فيريني القمر ؟ مالى أدعوه إلى السير فى النور فيأبى إلا التخبط فى الدياجير الحالكة ، يتطلب من الشوك عنبا ومن العوسج تيناً « كما قال السيد المسيح » وهو يتوخى أن يعكس التهاويل على أخيلته سحباً شفافة تنقشع عن جبريل عصرى ينقل إلى الدكتور بشر فارس « الوحى » العبقرى من ينابيعه السماوية ؟ ما باله يتعامى عن الطبيعة وعن الحياة الانسانية ويأبى الا رسم «ظلمات» الخلجات التى تعتلج فى صدره ؟

يحسن بى الانتقال من موقف التخصيص إلى موقف التعميم لأسأل : ما هو الارث الأدبى الخالد ، وما هو الأثر الذى تركه الشعر الرمزى فى تاريخ الأدب ؟

حكى أن شاعرا اسطوانة من أساطين الرمزية أنفق ستة أعوام من عمره فى نظم قصيدة واحدة ، وأن مطية من مطايا الشعراء الرمزيين كرس تسعة أشهر لحل طلاسم تلك المعلقة ، وقد استطاع ذلك الشارح — يرحمه الله — أن يفسر الماء بعد الجهد بالماء .

يودى لو أطيل الكلام وأسوق الأدلة ، وأستشهد بأقوال كبار النقاد الغربيين فى فساد المدرسة الرمزية ، ولكن لا يسعنى إلا لفت نظر الأدباء إلى فصل رائع فى الرمزية ورد فى كتاب « دفاع عن البلاغة » للأستاذ الزيات صاحب « الرسالة » جاء فى ختامه: «الرمز نوع من الحذلقة والأغراب يصيب بعض النفوس الماجنة فيجدون لذتهم وفكاهتهم فى أن يقربوا على عقول السذج بهذه الألفاظ الفارغة والجمل الجوف ، وأن يروهم يحملقون فى الفواصل وفى الأبيات كما يحملق الأطفال فى الغرفة المظلمة أو فى البئر المعطلة . وسواء أكان منشأ الرمزية عندنا هذا الأمر أو ذاك ، فقد اقتبسوا مذهبها حين أصبح ضرباً من المماياة يجوز أن يقصد به أى شىء ماعدا الافهام والابانة . وسأضع أمام عينيك مثالين من هذه الرمزية الغريبة أحدهما قصيدة للدكتور بشر فارس عنوانها «إلى زائرة» ، والآخر مقال للأستاذ البير أديب عنوانه «حياتنا» ؛ وسأدع لك الوقت لتمتحن صبرك على كشف هذه الرموز وحل هذه الأحاجى . وان أسألك عما فهمت ، فإنك إن أجبت فان جوابك لن يزيد على جوابى ، وان أخطأت فان خطأك لن يختلف عن صوابى»

ليس هذا إلا بعض ما أريد قوله فى المذهب الرمزى ، وفى مطايا الرمزيين الذين يؤجرون أقلامهم وضمائرهم لخدمة الباطل فى الأدب ، وسأعود إلى الكلام مرة ثانية .

عبيد الزمطوى